



www.mecsaj.com/ar

المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة المعرفة لنشر الأبحاث العلمية والتربوية (MECSJ)

العدد التاسع (كانون الثاني) ٢٠١٩

عنوان البحث

((سياق الحال في سورة يوسف من الآية "٧" إلى "٢١"))

اسم الباحث: خلود بنت عبدالعزيز بن محمد الحربي

ملخص البحث:

السياق اللغوي هو الذي يعطي المدلولات ويحددها، وهو من جانب آخر يعطي الشكل التركيبي النهائي للجملة، وبذلك فإن فهم أبعاد النص ودلالته لا يتم بالوقوف عند تركيب الألفاظ فحسب، بل لابد من الاهتمام بالجوانب الأخرى الخارجة عن نطاق اللغة وتساعد في فهم النص ودلالته؛ ولذلك اخترت الوقوف عند "سياق الحال"، لأن النص لا ينفصل عن الموقف والظروف التي وجد فيها؛ واخترت سورة يوسف لما فيها من أنواع التقلبات من حال إلى حال، ومن محنة إلى أخرى. والتي أسعى من خلالها تحقيق بعض الأهداف وهي: الكشف عن معنى "سياق الحال" بين المحدثين والأقدمين،

بيان ما للسياق من دور في فهم ما يحيط بالنص، الكشف عن البيئة الخارجية للقصة، ومكانها، وزمانها، بيان أثر الظروف الخارجية على سياق القصة، بيان الأثر الذي تركه السياق في نفوس المشاركين في الحدث الكلامي، وفي نفوس المتلقين.

واستعنت بالمنهج الوصفي في هذا الموضوع ودراسته لدى العلماء اللغويين قديما وحديثا، وتطبيق هذه الدراسة على سورة يوسف.

وقد توصل البحث إلى عدد من النتائج:

- ١) إن السياق اللغوي، وسياق الموقف يكمل أحدهما الآخر، فلا يمكن الاستغناء عن أحدهما في فهم معنى النص.
- ٢) إن النص هو مرآة عاكسة للظروف الاجتماعية، والنفسية، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالزمان والمكان، وجميع الأمور التي دعت المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين.
- ٣) تدرج السياق القرآني في قصة يوسف تبعاً لتدرج الأحداث والزمان، وتنوعت تبعاً لذلك الظروف الاجتماعية والنفسية المحيطة بالقصة، و اختلف المكان، وتنوعت الشخصيات كذلك.
- ٤) سياق الآيات في مشهد حيلة أخوة يوسف عكس المجتمع المكاني الأول الذي عاش فيه يوسف عليه السلام في بادية الشام، و صورت الانقلاب الذي صار في حياته وانتقاله إلى مجتمع مكاني آخر وهو (الجب)، ثم انتقاله إلى مكان مختلف كلياً عن سابقه وهو (مصر).
- ٥) أثر النص الكلامي كان واضحاً في المشتركين، كمحاولة إقناع الأبناء لأبيهم بمرافقة يوسف له، ووحشة يوسف عليه السلام وخوفه من ظلمة البئر، وألم يعقوب عليه السلام وحزنه على فقد لولده.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، جدد الله به رسالة السماء ، وأحيا ببعثته سنة الأنبياء ، ونشر بدعوته آيات الهداية ، وأتم به مكارم الأخلاق وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

لقد شغلت قضية المعنى العلماء قديماً وحديثاً، وظهر جيل من اللغويين يعنون بدراسة المعنى، والوقوف على دلالات الألفاظ بالنظر لما يحيط تلك الألفاظ من ظروف اجتماعية، ونفسية، ولغوية وغيرها، وذلك من خلال السياق.

وإن كان السياق هو الذي يعطي المدلولات ويحددها، فإنه من جانب آخر يعطي الشكل التركيبي النهائي للجملة، وبذلك فإن فهم أبعاد النص ودلالته لا يتم بالوقوف عند تركيب الألفاظ فحسب، بل لابد من الاهتمام بالجوانب الأخرى الخارجة عن نطاق اللغة وتساعد في فهم النص ودلالته؛ ولذلك اخترت الوقوف عند "سياق الحال" ، لأن النص لا ينفصل عن الموقف والظروف التي وجد فيها.

ومن هذا المنطلق اخترت تطبيق هذا النوع من السياق على النص القرآني بوصفه نزل مفرداً تبعاً لتتبع الأحداث، فلم ينزل في مكان واحد، ولا زمن واحد، ولهذا احتاج تفسيره إلى معرفة سبب النزول، ومناسبته، حتى يمكن تفسيره. فكان بذلك موضوع بحثي :

((سياق الحال في سورة يوسف من الآية "٧" إلى "٢١"))
واخترت سورة يوسف لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى أخرى، ولأن هذه القصة انفردت بسورة خاصة، ولم تتكرر. والتي أسعى من خلالها تحقيق بعض الأهداف وهي:

١. الكشف عن معنى "سياق الحال" بين المحدثين والأقدمين.

٢-بيان ما للسياق من دور في فهم ما يحيط بالنص.

٣-الكشف عن البيئة الخارجية للقصة، ومكانها، وزمانها.

٤-بيان أثر الظروف الخارجية على سياق القصة.

٥-بيان الأثر الذي تركه السياق في نفوس المشاركين في الحدث الكلامي، وفي نفوس المتلقين.

واستعنت بالمنهج الوصفي في هذا الموضوع ودراسته لدى العلماء اللغويين قديماً وحديثاً، وتطبيق هذه الدراسة على سورة يوسف.

خطة البحث:

المقدمة: وتضم التعريف بأهمية الموضوع، وأسباب اختياري له، والأهداف التي يرجى تحقيقها.

التمهيد: ويتضمن التعريف بالسياق عند اللغويين، و مفهوم موجز لنظرية السياق عند فيرث.

الفصل الأول: سياق الحال؛ ويندرج تحته مبحثان:

المبحث الأول: سياق الحال عند المحدثين

المبحث الثاني: سياق الحال عند الأقدمين

الفصل الثاني: سياق الحال في سورة يوسف من آية (٧) إلى (٢١).

الخاتمة: وتضم النتائج التي انتهى إليها البحث.

وأسأل الله أن يسدد الخطى، وأن يوفق الدرب، وأن ينفع بهذا العلم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

التمهيد

السياق في اللغة:

جاء في لسان العرب: ((سَاقَ الإِبِلَ وغيرها، يسوقها سَوْقًا و سِياقًا، وهو سائق وسَوَّاق؛ وتساوقت الإبل تساقًا: إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة.

والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضها)).^(١)

وفي مقاييس اللغة: ((من الجذر اللغوي (س.و.ق)؛ يقال: ساقَهُ يسوقُهُ سَوْقًا. والسيقة: ما سئق من الدواب... ويقال: سُقْتُ إلى امرأتي صداقها، وأسقْتُه. والسوق مشتقة من هذا، لما يُساق إليها من كل شيء)).^(٢)

وفي القاموس المحيط: ((السَّيَاق، ككتاب: المهر... وأسقْتُه إبلاً: جعلته يفودها؛ والمنساق: التتابع، والقريب... وتساوقت الإبل: تتابعت وتقاودت، والغنم: تزاومت في السير)).^(٣)

ويتبين لنا من أن مادة (س.و.ق) تدور حول معاني التتابع، والقيادة، والإتصال، وكلها معاني متقاربة.

(١) جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، ط٣، ج١، ص١٦٦-١٦٧.
(٢) أحمد بن فارس القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ج٣، ص١١٧.
(٣) محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتبة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ط٨، ج١، ص٨٩٥-٨٩٦.
(٤) المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، دار الكتب الوطنية، ليبيا، طبعة ٢٠١١م، ص١٤.

نظرية السياق

إذا تتبعنا مصطلح السياق فإننا نجد أن استخدام هذا المصطلح له علاقة بالأصل اللغوي، فيقال: سياق الجملة، وسياق النص...

(وقد أولت بعض الدراسات الحديثة- خاصة عند بعض علماء اللغة الغربيين-اهتماماً كبيراً بالسياق، فقد عرفت مدرسة لندن ما يعرف بالمنهج السياقي، وكان زعيم هذا الاتجاه فيرث (Firth)، الذي تبلور اتجاهه فيما يعرف باسم (النظرية السياقية) (٤).

ومن ضمن ما أكد عليه فيرث (Firth) في هذه النظرية قوله: (بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال وضع الوحدة اللغوية في سياقات مختلفة، فالمعنى عنده يفسر باعتباره وظيفة في سياق). (٥)

وعلى هذا فإنه عند دراسة معاني الكلمات يتطلب ذلك وضعها في سياق، وتحليل المواقف التي ترد فيها تلك الكلمات؛ أي أن معنى الكلمة يختلف تبعاً لاختلاف السياقات التي تقع فيها.

وقد اقترح k. Ammer تقسيماً للسياق ذا أربع شعب يشمل:

١-السياق اللغوي

٢-السياق العاطفي

٣-سياق الموقف

٤-السياق الثقافي). (٦)

والمعنى عند فيرث (Firth): (كل مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية ، وأهم عناصر هذا الكل هو الوظيفة الصوتية، ثم المورفولوجية، والنحوية، والقاموسية، والوظيفة الدلالية ل"سياق الحال"). (٧)

(٥) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٥، ص٦٨، بتصرف.

(٦) أحمد مختار عمر، ص٦٩.

(٧) محمود السمران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ص٣١٢.

(٨) المرجع السابق، ص٣١٢.

وعليه فإنه يرى (أن الوصول إلى معنى أي نص لغوي يستلزم:

١- أن يحلل النص اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة.

٢- أن يبين "سياق الحال": شخصية المتكلم، شخصية السامع، وجميع الظروف المحيطة بالكلام.

٣- أن يبين نوع الوظيفة الكلامية. وأخيراً، يذكر الأثر الذي يتركه، ضحك، سخريّة،...^(٨).

سورة يوسف

سميت هذه السورة بسورة يوسف لأنها قصت قصة يوسف عليه السلام كلها ولم تذكر قصته في غيرها؛ وهي مكّية، و السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور، عدد آياتها (١١١) آية.^(٩)

وعن سبب نزولها: قال مصعب بن سعد عن سعد في قول الله عز وجل {نحن نقص عليك أحسن القصص} قال: أنزل الله القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا وأنزل الله {ألر تلك آيات الكتاب المبين} إلى قوله تعالى: {نحن نقص} فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم زماناً.

وقيل: تسليّة للرسول صلى الله عليه وسلم؛ فما يفعله به قومه فعله أخوة يوسف عليه السلام به.^(١٠)

(٩)- محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٨٤م، ج ١٢، ص ١٩٧. يتصرف.
(١٠)- شهاب الدين السيد محمد الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١٢، ص ١٧٠.

الفصل الأول: سياق الحال

المبحث الأول: سياق الحال عند المحدثين

(سبق العالم اللغوي " برونسلاو مالمينوفسكي " العالم الأنثروبولوجي البولندي "فيرث " في استعماله لمصطلح "سياق الحال" ورأى أن اللغة هي نوع من السلوك تؤدي وظائف كثيرة غير التوصيل، لكن "فيرث" هو من طور هذا المصطلح و" سياق الحال " عنده هو نوع من التجريد من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام).^(١١)

وسياق الحال عند محمود السعران هو: (جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي، و من هذه العناصر المكونة للحال الكلامية:

١- شخصية المتكلم والسماع، وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسماع-إن وجدوا-وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

٢- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة؛ باللغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، كالوضع السياسي، وكمكان الكلام.

٣- أثر النص الكلامي في المشتركين، كالإقناع أو الألم أو الضحك.

٤- إن نظرية اللغة التي تقوم على التصور الخاص ب"سياق الحال" تشمل جميع أنواع الوظائف الكلامية).^(١٢)

وسياق الحال عند د. تمام حسان هو: (مجموع عناصر المحيطة بموضوع التحليل، وتشمل حتى التكوين الشخصي، والتاريخ الثقافي للشخص، ويدخل في حسابها الماضي والحاضر والمستقبل).^(١٣)

(١١) -علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص ٣١٠، بتصرف.

(١٢) المرجع السابق، ص ٣١١.

(١٣) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٩٠م، ص ٢٥٢.

وقد سماه د. أحمد مختار عمر "سياق الموقف" وعرفه بأنه: (الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة).^(١٤)

وفي ذلك يقول د. المهدي إبراهيم الغويل: (البعد الخارجي للسياق يتمثل في الظروف والخلفيات المحيطة بالنص سواء ما يتصل بالمخاطب أو المخاطب، وكذلك البيئة الزمانية والمكانية النابع منها النص، وكذلك يشمل الأسس الفكرية والحياتية القائمة وراءه، وهو بهذا المعنى يشمل جملة الملابس والأحوال والظروف القائمة في الإطار الزماني والمكاني لعملية التخاطب).^(١٥)

ويتضح من تعريف "سياق الموقف" عند العلماء المحدثين بأنه المحيط الخارجي للنص بكل ما يشمل عليه من شخصيات، وبيئة المكان والزمان، والظروف الاجتماعية، والسياسية، وما إلى ذلك ذا أثر كبير في السياق .

ومما يجدر ذكره أن معرفة السياق الخارجي للنص لا يقصد من ورائها التعمق في معرفة الظروف المحيطة بالنص، ومعرفة شخصية صاحبه وميوله وتطلعاته ، أو معرفة ظروف المجتمع وتاريخه بقدر ما يقصد بها النظر إلى النص وتقويمه وفهم معناه لأنها تعكس على هذا النص.^(١٦)

^(١٤)- علم الدلالة، ص ٧١.

^(١٥)- السياق وأثره في المعنى، ص ١٥.

^(١٦)- المرجع السابق، ص ١٠.

المبحث الثاني: سياق الحال عند الأقدمين

سبق علمائنا العرب القدماء كل أصحاب هذه النظرية وأنصارها في العصر الحديث، سواء كانوا من علماء اللغة أو الاجتماع، حيث قال علماء البلاغة " لكل مقام مقال"^(١٧) وكذا حين تحدثوا عن "مقتضى الحال".

واهتموا على وجه التحديد بسياق الموقف، وذلك حين عرفوا البلاغة بأنها: (مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته. ومقتضى الحال مختلف. فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يبين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد، ومقام التقديم يبين مقام التأخير، ومقام الذكر يبين مقام الحذف، ومقام القصر يبين مقام خلافه، ومقام الفصل يبين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يبين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يبين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام).^(١٨)

وقد تحدث الجرجاني أيضا عن ترتيب الألفاظ ومعانيها في النفس، وعبر عن توافق اللفظ والمعنى، ومدى التلازم والارتباط بين الكلمات بعضها مع بعض، وأن اللفظة يكون معناها بحسب السياق الذي تذكر فيه.^(١٩)

وأدرك الجرجاني أهمية السياق ودوره في إصابة المعنى، والوصول إليه وذلك في نظرية النظم، فيعرفه ويقول: (اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلاتزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها).^(٢٠) ويقول في موضع آخر: (النظم تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض).^(٢١)

^(١٧) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي-محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة

العنصرية، بيروت، ١٤١٩هـ، ج١، ص٢٧.

^(١٨) محمد عبدالرحمن جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣،

ص٤١-٤٢.

^(١٩) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٩هـ، ط٢، ص٥٣-٥٤. بتصرف.

^(٢٠) المرجع السابق، ص٧٠.

^(٢١) المرجع السابق، ص١٥.

وقد قسم الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر: أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل إلى الغرض.^(٢١)

في حين يسميه ابن خلدون "بساط الحال" حيث يقول: (الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ماتقتضيه الأحوال- ويسمى بساط الحال- محتاجاً إلى ما يدل عليه، وكل معنى لا بد أن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود؛ لأنها صفاته).^(٢٢) وأضاف: أن عند العرب لكل مقام مقال يختص به.^(٢٣)

ويتضح مما سبق أن فكرة السياق لم تكن جديدة تماماً عندما تناولها الغربيون، وإنما كانت امتداداً لجهود اللغويين العرب وأبرزهم: عبدالقاهر الجرجاني. وفي ذلك يقول تمام حسان: (حين قال البلاغيون "لكل مقام مقال" و "كل كلمة مع صاحبها مقام" وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات، لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء).^(٢٤)

ولكن نستطيع القول أن الغربيين ومن أبرزهم (فيرث) قد صاغوا الفكرة في شكل نظرية قابلة للتطبيق، ووضعوا لها قوانين جعلتها تختلف عن غيرها من نظريات دراسة المعنى. وركزوا على الجانب الاجتماعي الذي تؤديه اللغة.^(٢٥)

وإذا ما نظرنا إلى (المقام) عند البلاغيين نجده يمثل (سياق الموقف)؛ وأبرز ما نراه عند عبد القاهر الجرجاني إذ يقول: (إن الفاعل قد يكون له مفعول مقصود قصده معلوم إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه).^(٢٦)

^(٢٢) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ١٧٧، تلخيص.

^(٢٣) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الجليل، بيروت، ج ١، ص ٦١٤-٦١٥.

^(٢٤) المرجع السابق، ص ٦٠٩.

^(٢٤) اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، ١٩٩٤م، ص ٣٧٢.

^(٢٥) انظر أحمد مختار عمر، ص ٦٨.

^(٢٦) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ١١٣.

الفصل الثاني: سياق الموقف في قصة يوسف

من آية (٧) إلى آية (٢١)

نزلت هذه السورة على محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن تلا على قومه من القرآن زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا. فأنزل الله تعالى هذه السورة، فتلاها عليهم زماناً.^(١)

قصة مكيدة الأخوة في يوسف عليه السلام :

{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

(١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
نَتَّخِذَهُ وَادًّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) }

{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ (٧) }

كانت هذه الآية الافتتاح الموطأ لذكر قصة يوسف عليه السلام، وهي دليل على أن العرب سمعوا بقصة يوسف وأرادوا معرفة تفاصيلها من الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاءت هذه الآية مقدمة لما سيذكر من الأحداث، وهذا يهيب ذهن المتلقي لتلقي القصة، ويزيد من تفاعله.^(١)

ومخبرة مقدما عن ما في القصة من عظات وعبر. وجاء التعبير ب(يوسف وإخوته) مع أن القصة قصت أحداث ليوسف مع غير إخوته، (مع السيارة، ومع امرأة عزيز مصر، ومع الفتيان في السجن، وغيرها) لكن الآية التعبير في الآية جاء بالجزء والمراد الكل، وقد يرجع ذلك لأن قصة يوسف مع إخوته كان لها من الأثر النفسي عليه الشيء الكبير، فعداوة الأقارب ولاسيما الأخوة أشد وقعا في النفس من أذى غيرهم.

ثم بدأت القصة بالحدث الأول في حياة يوسف عليه السلام، وهو: (حيلة إخوته ومؤامرتهم للتخلص منه)، وبدأ السياق القرآني في ذكر هذا الحدث ب{إِذْ قَالُوا} هذا القول ينقلنا لمشهد الإخوة وهم مجتمعون (في ذلك الزمان الذي حدثت فيه القصة، فإن قولهم ذلك حينئذ هو السبب الذي قامت عليه أحداث القصة تلك، إذ تك الآيات قائمة في الحكاية عن ذلك الزمن، وهذا القول المحكي من تأمر وتحاور).^(٢)

(١) - انظر: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ضلال القرآن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج٤، ص١٩٧٥.
(٢) - محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٨٤م، ج١٢، ص٢٢٠.

ولام الابتداء في { ليوسف } لقصد توكيد الخبر الذي سيأتي، إذا أرادوا إقناع بعضهم البعض بأن يوسف وشقيقه أحب إلى أبيهم منهم، إذ لم يكونوا سواء في الحسد والغيرة منهما، فاجتمعوا لإقناع من لم يلتفت منهم لذلك، وهذا سبب صريح بألسنتهم ليتأمروا على الكيد ليوسف عليه السلام وأخيه، (وقد خصوه بالأخوة لأنه كان شقيقه، وأمهما " راحيل" وكان البقية إخوته للأب).^(٣)

(وأظهروا تعجبهم من تفضيل أبيهم ليوسف وأخيه عليهم، مع أنهم أكثر عدداً، وأكثر نفعاً منهما، إذ كانا صغيرين)^(٤)، ولا نفع منهما-على حسب رأيهم-لكن كان هذا كله بسبب ضلال أبيهم- على ما يرون- وقولهم هذا قد يكون بسبب الغيرة التي أعمت بصيرتهم، وأصمت آذانهم لما يقولون، وفيها بيان لما تسببه الغيرة من أذى في نفوس أصحابها، وفيمن حولهم.

ومن الواضح أن هذا المشهد كان في مكان ما بعيداً عن أسمع يعقوب عليه السلام وابنيه، لأن التأمراً على مكيدة يتم دائماً في الخفاء بعيداً عن مسامع الناس.

ثم بدأت بعد ذلك حياكة الخطة والحيلة، للتخلص من يوسف عليه السلام، (فجعلوا الكلام السابق كالمقدمة لتتأثر نفوس السامعين، فإذا ألقى إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه)^(٥)، فوضعوا فروضاً للتخلص منه وهي: إما القتل أو إبعاده في أرض مجهولة، توصلهم للغرض الذي من أجله سيتم التخلص من يوسف عليه السلام، وهو أن لا ينشغل يعقوب عليه السلام عنهم، ويتفرغ لهم، ويقبل عليهم بالشفقة والمحبة^(٦)، دون مشارك، لأن الخلو حقيقته: الفراغ، { وتكونوا من بعده قوماً صالحين }، والمراد بالصلاح فيه الصلاح الدنيوي، أي: صلاح الأحوال في عيشتهم مع أبيهم، بدليل عطف { وتكونوا من بعده } على { يخل } ليكون من جملة الجواب للأمر).^(٧)

(٣)-محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، ص ٢٢٠.

(٤)-المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٥)-المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٦)-عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تقديم: عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل-محمد الصالح العثيمين، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ، ص ٣٩٤.

(٧)-محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، ص ٢٢٤.

ثم ناقشوا هذه الفروض مع بعضهم البعض ثم {قائل قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين} أي: قال أحد الأخوة، وعدل الله تعالى عن ذكر اسمه، لأنه لا يريد أن يصرف انتباه السامعين عن الحدث الأعظم والمهم الذي تعرض له يوسف عليه السلام، فقال أحدهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب، وذلك لأن القتل أشنع وأعظم إثمًا، ولكن بإلقائه في غيابة الجب يحصل مبتغاهم، وهو الإبعاد فيلتقطه بعض السيارة الذين يريدون مكانا بعيدًا فيحتفظون به، وهذا القائل بهذا الرأي أحسنهم رأيا في يوسف، وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض.^(٨)

والجب: هي البئر التي لم تطوى.^(٩) وغيابة الجب: قعره.^(١٠)

والواضح من سياق الآية كأنهم قد علموا جبا محددة يقصدونها، للرعي بقر بها، وسقي إبلهم، بدليل تعريفها ب(ال) وإضافتها، وأنها لم تكن عميقة القعر، وكأنهم علموا أن إلقاءه في الجب لا يهشم عظامه، ولا ماء فيه فيغرقه، بدليل قولهم: {يلتقطه بعض السيارة}، وأن الطريق لا تخلو من قوافل المسافرين بين الشام ومصر.^(١١)

{ إن كنتم فاعلين} فيه دعوة للتريث فيما أضمره، لعلمهم يرجعون عن ما عزموا على تنفيذه، وهذا دليل آخر على أن القائل أتقاهم، وأكثرهم رافة بأخيه^(١٢)، وقد يكون غير مقتنع بما سيقومون به. والله أعلم.

واتفقوا على هذا الرأي، وعزموا على تنفيذه، فقاموا بأول خطوة في الخطة التي وضعوها وهي: إقناع يعقوب عليه السلام باصطحاب يوسف عليه السلام معهم، {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ}

(٨)- عبدالرحمن السعدي، ص ٣٩٤.

(٩)- أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤١٤ هـ. (مادة جيب).

(١٠)- المرجع السابق، مادة (غيب).

(١١)- محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، ص ٢٢٤. بتصرف.

(١٢)- المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(١٣)- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ج ٦، ص ٢٤٤.

وانتقل المشهد إلى مكان آخر، وكان الحوار بين يعقوب عليه السلام وأبنائه ؛ فبدأ أبنائه بالحوار: وقالوا { يا أبانا! لفت انتباهه وأظهروا غاية التأدب في كلامهم ، { يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف} وفي ذلك دليل على (أنهم قد تقدّم منهم سؤال في أن يخرج معهم)^(١٣). وأظهروا الرحمة لأخيهم و تقديم النفع والنصح له { وإنا لناصحون} .

{ أَرْسَلُهُ مَعْنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } ، فهذا أسلوب طلب مع رجاء بإرساله معهم في الغد { يرتع ويلعب} (وإنما ذكروا ذلك لأنه يُسرّ أباهم أن يكونوا فرحين)^(١٤)، فقدموا مصلحة يوسف عليه السلام، ليحصلوا على موافقة أبيهم، وقالوا: {وإننا له لحافظون} مؤكداً آخر على حرصهم وخوفهم على يوسف عليه السلام ؛ فهم بذلك استخدموا كل الطرق والوسائل لإقناع يعقوب عليه السلام، والذي يدل على ذلك استخدامهم لأكثر من مؤكّد في كلامهم { وإنا له لناصحون}، و { وإنا له لحافظون} ، ومن ضمن وسائل الإقناع التي استخدموها؛ تقديم ما يحبه يعقوب عليه السلام، وما يدخل السرور على قلب يوسف في ذلك العمر الصغير فقالوا: { أَرْسَلُهُ مَعْنَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ}.

{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ }

ثمّ أظهر يعقوب عليه السلام سبب امتناعه عن خروج يوسف عليه السلام معهم، وهو أنه يحزنه ذهاب يوسف من دون مرافقته وهو لم يعتد على ذلك بحكم صغر سنه، كما يخشى عليه من الذئب، إذ كان يوسف آنذاك غلاماً، لم يعتد مقاومة الوحوش^(١٥)، وبحكم سكنهم في الصحراء فيعقوب عليه السلام على علم بالصحراء وسباعها.

{ وأنتم عنه غافلون} أي: في غفلة منكم، إذ أن يعقوب عليه السلام لم يشك في قوتهم وتكاتفهم ، فهم عصبية، ولم يكن يشك في سوء نيتهم، فهم أولاده فلذات أكبادهم، ويوسف أخيهم؛ فأكدوا بعدها مباشرة { قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ } استخدموا مؤكداً آخر وأقسموا بتعهدهم بحمايته وحفظه، وعدم تفريطهم فيه، فهم قادرون على ذلك وعددهم يشهد بذلك، محاولة منهم للفت انتباه أبيهم لعدهم، وقوتهم، وثقتهم بتلك القوة،

(١٤)-محمد الطاهر بن محمد عاشور، ص ٢٤٤. بتصرف.

(١٥)-المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(١٦)-أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٢، ص ٤٤٩. بتصرف.

وورد قولهم: { ونحن عصابة } مرتين دليل على تفاخرهم في ذلك الزمن بالعدد الكثير من الأولاد - والله أعلم؛ وإن حصل وأكله الذئب ونحن جماعة كثر والله إنا لهالكون ضعفاً وعجزاً ولا جدوى من حياتهم^(١٦).

وبذلك انتهى الحوار القائم بين يعقوب وأبناءه بحصول الأبناء على مبتغاهم وهو موافقة يعقوب عليه السلام بإرسال يوسف معهم في الغد، وكان هذا الحوار يتضمن أساليب الإقناع في الحوار منها: المؤكدات، وتقديم ما يهم السامع أولاً، والإلحاح في الطلب. يقول ابن عاشور في تفسيره: (ثم تفرّعت حكاية الذهاب به والعزم على إلقاءه، من المحاوراة بين يعقوب عليه السلام وبنيه في محاولة الخروج بيوسف إلى البادية، يؤذن بجمل محذوفة فيها ذكر أنهم ألحوا على يعقوب حتى أقنعوه فأذن ليوسف بالخروج معهم).^(١٧)

ثم انتقل المشهد من بيت يعقوب عليه السلام إلى (بادية الشام)؛ المكان الذي ذهبوا إليه الأبناء ومعهم يوسف عليه السلام، إلى المكان الذي عزموا على تنفيذ المكيدة فيه، بعيداً عن الأنظار، وقوله تعالى: { وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب } تأكيد على إجماعهم جميعاً على تنفيذ ذلك الأمر، وهو جعله في غيابة الجب، ثم انتقل المشهد بعدها إلى يوسف عليه السلام وهو في البئر، مما يؤذن بجمل ومواقف محذوفة في القصة؛ فقد حذفت الطريقة التي تمّ فيها الإنزال في البئر، وهل هو كان إنزالاً؟ أم إلقاء؟ أم ماذا؟

والأرجح أنه لم يلقوه إلقاء في البئر، فالآيات لم تظهر أي أدنى لحق بيوسف عليه السلام.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }

{ وأوحينا إليه... } في نفس الوقت الذي أنزل فيه يوسف في البئر أنسه الله تعالى بالوحي، و أزال عن قلبه الوحشة، { لتنبئهم } هذا وعد من الله تعالى وبشرى لنجاته من هذه المحنة، وأنه سيمتد به العمر حتى ملاقاته إخوته، وسيخبرهم في المستقبل بما فعلوه؛ لأن الإخبار يستلزم النجاة في ذلك الأمر، { وهم لا يشعرون } أي: يحسبون أنه هالك ومستوحش لا أنيس له^(١٨)، ولم تستخدم كلمة "يعلمون" بدلاً من "يشعرون" لأن الله تعالى أراد أن ينفي عنهم حتى مجرد الشعور بالذنب والخطأ، لأن نفي الشعور نفي للعلم، والعكس غير ذلك.

(١٧) - محمد الطاهر بن محمد عاشور، ص ٢٣٣.

(١٨) - أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، ص ٤٥٠. انظر: عبدالرحمن السعدي، ص ٣٩٥.

(١٩) - أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ، مادة (عشا).

{ غيابة الجب } هو المكان الثاني الذي انتقلت إليه أحداث المشهد، وهو السجن المنغلق الأول في حياة يوسف عليه السلام، بما فيه من وحشة وظلمة وغربة، حيث لا أنيس له إلا الوحي.

وزمن الحادثة كان في أول النهار، لأن الرعي عادة يكون في أول النهار؛ وبعدهما فعلوا فعلهم العظيم، { جاءوا أباهم... }، متظاهرين بالبكاء، ليعبروا عن حزنهم لفقدان أخيهم، وجاء الزمن (عشاءً) ذا دلالة صريحة على الزمن الذي حدثت فيه المكيدة، فمن المؤكد أنهم نفذوها قبل ذلك الوقت، أي: في النهار. والعشاء: أول الظلام في الليل، ووقته حين يغيب الشفق^(١٩)؛ ورجعوا في هذا الوقت بالتحديد، لأنه في ذلك الوقت تكون قد حلت خيوط الظلام على الكون، فلا يستطيع يعقوب عليه السلام البحث عنه، وحتى لا يكشف أباهم أن الحزن الذي يظهر عليهم إنما هو ادعاء، ولا يفضح الكذب البين في أعينهم في وضح النهار.

وأول ما بدأوا الكلام برروا فعلهم الشنيع، وأبعدوا صلتهم بما حصل ليوسف قبل أن يلقوا إليه بالحدث العظيم وهو: (أكل الذئب له)، وقالوا: { إنا ذهبنا نستبق } إما بالأقدام، أو بالرمي، والرأجح أن السباق كان بالأقدام، لأنه على عادة أهل البادية التدرب على العدو لما تحفهم من المخاطر والسباع وقطاع الطرق، وقالوا { أكله الذئب } ولم يقولوا افترسه مع أن عادة الذئب الافتراس، ليثبتوا أن الذئب لم يبق منه شيئاً، { وما أنت بمؤمن لنا } قالوا ذلك لما لمسوه من أبيهم في عدم تصديقه لهم، وليؤكدوا قولهم { وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ } وزعموا أنه دم يوسف عليه السلام حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أيضاً بل زاد شكّه في صدقهم لدلائل شاهدها يعقوب عليه السلام منها: أنه لما شاهد القميص صحيحاً علم كذبهم^(٢٠)، لأن أكل الذئب له يستلزم تمزيق القميص، لكن القميص لم يكن ممزقاً بل كان عليه دم كذب، وهذا ما أكد ليعقوب عليه السلام كذبهم.

فاستعمل (القميص) هنا كدليل كاذب ليس صحيحاً، وحذف من السياق كيفية خلعهم لقميص يوسف كما حذف كيفية إلقاءه من قبل.

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } بل : حرف إضراب، إبطال لدعواهم المزعومة أن الذئب أكله، فقد صرح يعقوب عليه السلام بعدم تصديقهم فقال: { بل سولت } أي أن الأمر ليس كما تقولون بل سولت وزينت لكم أنفسكم (أمراً) لا اعلم ما هو،

(٢٠)- أبو عبدالله محمد بن عمرو بن الحسن الرازي-فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج١٨، ص٤٢٩. يتصرف.

(٢١)- محمد الطاهر بن محمد عاشور، ص٢٣٨.

(٢٢)- المرجع السابق، ص٢٤٠.

(٢٣)- المرجع السابق، ص٢١٤.

والتنكير والإبهام في كلمة (أمراً) يحمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف عليه السلام من قتل، أو بيع، أو تغريب، لأنه لم يعلم تعيين ما فعلوه، والتنكير في (أمراً) للتهويل.^(٢١)

فعدل بعد ذلك عن لومهم ولجأ إلى الله { فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون} احتمال استعانته بالله على حمل الصبر على ذلك، أو الاستعانة بالله ليوسف عليه السلام على الخلاص بما أحاط به، والتعبير ب{ ما تصفون} لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الوصف، وبأنهم ألحقوا بيوسف ضرراً ، فلما لم يتعين المصاب، أجمل التعبير عنه إجمالاً.^(٢٢)

وامتثل يعقوب عليه السلام لأمر الله، ورضي بقضائه، ونلمس من هذه الآية شدة حزن يعقوب عليه السلام ، فلم يكن له معاوناً ومؤازراً إلا الله (وإنما فوّض يعقوب أمره إلى الله، ولم يسع للكشف عن مصير يوسف، قد يكون لكبر سنّه، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبناءه أولئك^(٢٣). ثم تسلسلت الأحداث تسلسلاً منطقياً ؛ وانتقل المشهد إلى جانب الجب عند يوسف عليه السلام، { وجاءت سيارة} جاءت جماعة من السيارة في الطريق، وقصدوا البئر، وقد أدلى ساقبهم دلوه ليرد لهم الماء، فإذا به يلتقط غلاماً، وحذف من السياق كيف قضى يوسف عليه السلام ليله في البئر، وعن عدد الليالي التي قضاها هناك، لأنه كان بين يدي الوحي ومؤانسته له، وكان في حفظ الله تعالى.

{ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}

{وقال يا بشري..} أي أنه ابتهج واستبشر بهذا الغلام،(وأسروه بضاعة)، لأنهم يريدون بيعه،(أسروه)مخافة أن يتعرف عليه أحد من ذويه فيطالب به،فأتى به إلى جماعته واستبشروا به لما كان عليه من الجمال حتى ينافسوا في أمره ويغالوا بثمنه.^(٢٤)

فذهبوا به إلى مصر لبيع عبداً، وينشأ في بيت العزيز، وهذا يدلنا على استرقاق الغلمان آنذاك ، وقوله تعالى : { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } (الضمير في "شروه" يعود إلى السيارة،وليس على إخوة يوسف لأن حال إخوته في أمره فوق الزهد بمراحل ،فلو كان لهم لقيم:وكانوا فيه من المبعدين أو المبغضين أو نحو ذلك)

(٢٤)- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج ١٠، ص ٣٦-٣٥.

(٢٥)-المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢٦)-محمد الطاهر بن محمد عاشور، ص ٢٤٣.

(٢٥)، (بثمن بخس دراهم معدودة) لا يدل على أنه ثمن قليل وإنما بخس أي قليل بالنسبة لقدر يوسف عليه السلام وقيمته. وعثور السيارة على الجب الذي فيه يوسف آية من لطف الله به. (٢٦)

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } ذكر اسم المكان الذي انتقل إليه يوسف بعد ذلك وهو (مصر) وهي رمز للحضارة والرفاهية آنذاك، فاختلف المكان واختلفت الشخصيات، واختلف المجتمع على يوسف عليه السلام، فأحس بغربة المكان، ووحشته من دون أبيه وإخوته.

وتتابع الأحداث يدل على أن القصة حدثت في زمن واحد، باختلاف الأيام. لكننا لم نستدل صراحة على مدة سير القافلة في الطريق إلى أن وصلت مصر لكن من المؤكد أن البيع قد تم في النهار لأن في النهار كل يسعى إلى رزقه وإلى عمله، والتجارة عادة تكون في النهار.

وقول عزيز مصر لإمرأته (أكرمي مثواه) دليل على إعجابه بالغلام بدليل أنه وصى امرأته بحسن إكرامه، فهو إما أن ينفعنا كخادم، وإما نستمتع به كاستمتاعنا بأولادنا. (٢٧)

وهذا قد يدل على أنه لم يكن لديه أولاد، أو أن امرأته لا تنجب، لأنه قال (نتخذه ولدا) وهذا يقتضي أنهما لم يكن لديهما ولد فأراد أن يجعل الإحسان والإكرام له سبباً في اجتلاب محبته إياهما فينفعهما أو يتخذانه ولداً فيبهرهما، وذلك أشد تقرباً. (٢٨)

{ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي انه في كل ما حصل ليوسف عليه السلام فإن الله مسخر له ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

أي كما سائرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، فعلنا ذلك مقدمة لتمكين يوسف عليه السلام في أرض مصر. (٢٩)

(وكان انتظام أمور يوسف إلهياً، مع أن إخوته أرادوا به كل سوء، ولكن الله أراد به الخير، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله) (٣٠)، وعلمه الله تأويل الأحاديث والرؤى، وذلك دليل على أنه علم من عند الله له ومعجزة من معجزاته.

(٢٧) - عبدالرحمن السعدي، ص ٣٩٥.

(٢٨) - محمد الطاهر بن محمد عاشور، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٢٩) - عبدالرحمن السعدي، ص ٣٩٥.

(٣٠) - فخر الدين الرازي، ج ١٨، ص ٤٣٦.

تدرجت الأحداث في القصة، وتدرج الحدث المكاني، والزمني، ونشأ عن هذا التدرج دلالات تكشف صحة تأويل يعقوب عليه السلام لرؤيا يوسف عليه السلام وإعجاز القران الكريم وبراعة القصص القرآني، حيث اختزلت القصة في ألفاظ قليلة تضمنت معاني جمّة.

تسلسل المشهد في حيلة إخوة يوسف:

غيرة أخوة يوسف وكيدهم ← إلقاءه في غيابة الجب ← التقاط السيارة له ← بيعه رقيقاً في مصر

واتسع الفضاء المكاني في المشهد فشمل البادية والحاضرة.

(١) الأماكن في هذا المشهد:

بيت يعقوب: لم يصرح به في القصة، ويتواجد في أحضان البادية، جمع يعقوب عليه السلام وبنيه.

الجب: مكان منخفض في الأرض، يتواجد في البادية، ويقع على طريق القوافل يقصده السيارة الباحثين عن الماء، وهو مكان تُرك فيه سيدنا يوسف عليه السلام، وكان بمثابة السجن الأول في حياته، مكان موحش، منغلق مظلم، وهو مكان تنفيذ مكيده أخوة يوسف، وكان دلالة على عزلة المكان ووحشيته، وفي هذا المكان أول ما نزل الوحي على سيدنا يوسف لمؤانسته ونزول السكينة على قلبه.

مصر: (وقال الذي اشتراه من مصر) تشكل هذه الآية الانتقال المكاني في هذه القصة بين البادية والحاضرة في مصر، فهي رمز الحضارة، وبلد التجارة.

(٢) لم تكن في القصة دلالات على ذلك الزمن الذي حدثت فيه القصة، إلا بعض الإشارات التي تدل على حدوث المشهد ليلاً أو نهاراً.

(٣) تنوعت الشخصيات في هذه القصة بحسب اختلاف المشاهد.

الشخصية المحورية: يوسف عليه السلام تدور كل أحداث القصة حوله؛ (وظهرت شخصية يوسف عليه السلام (غلام صغير السن) وتظهر دلائل على ذلك في القصة: (٣١) ^{١٨}

(أخاف أن يأكله الذئب) دليل على صغر سنه.

(كنا نستبق وتركناه عند متاعنا) لأنه كان صغير السن لم يستبق معهم.

(يا بشرى هذا غلام) دلالة على صغر سنه.

وقول العزيز: عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا

الشخصيات الرئيسية: (يعقوب عليه السلام، إخوة يوسف، السيارة، عزيز مصر وامرأته)

يعقوب عليه السلام: (الأب، كبير السن، تعبير الرؤيا، الذكاء، حزنه لفقد ابنه)

إخوة يوسف: (عصبة، الغيرة، الكيد والمؤامرة، الكذب)

السيارة: (مسافرين على طريق القوافل، استترقا يوسف عليه السلام، بيع الرقيق)

عزيز مصر وامرأته (الذي اشترى يوسف عليه السلام، الكرم، لم يكن لهما ولد)

٤) البعد الاجتماعي ظهر واضحا في القصة؛ فكان المجتمع الأول الذي نشأ فيه يوسف عليه السلام هو (البادية) فقد كانت صحراء على مد البصر، مليئة بالسباع والذئاب، فيها آبار تقع على طريق القوافل، وكان المجتمع آنذاك يتفاخر بكثرة الأبناء، ويشغلون بالرعي.

ثم انتقل يوسف عليه السلام إلى المجتمع الآخر (الحاضرة) الذي احتضن يوسف عليه السلام وحدثت فيه أحداث عظيمة بعد ذلك، وهذا المكان دلالة على الرفاهية، والتجارة، والملك العظيم.

٥) تنوعت الحالة النفسية للشخصيات ما بين (خوف ووحشة يوسف عليه السلام في البئر وخوف إخوة يوسف أن يكشف أبوهم كذبهم، وشدة حزن يعقوب عليه السلام على فقدان ابنه، وسرور السيارة بإيجاد يوسف في البئر - وذلك لأسباب اقتصادية-، سرور عزيز مصر بشرائه ليوسف عليه السلام).

(٣١)- أبو حيان الأندلسي، ج٦، ص٢٤٩. بتصرف.

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، وصلاته وسلامه على خاتم أنبيائه ورسله نبينا محمد وعلى آله وصحبه من بعده... أما بعد:

بعد هذه الرحلة العلمية في رحاب سورة يوسف؛ والتي قضيت معها جلّ وقتي، وعرجت معها إلى فضاء الخيال، خرجت بعدد من النتائج وهي:

٦) إنّ السياق اللغوي، وسياق الموقف يكمل أحدهما الآخر، فلا يمكن الاستغناء عن أحدهما في فهم معنى النص.

٧) إنّ النص هو مرآة عاكسة للظروف الاجتماعية، والنفسية، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالزمان والمكان، وجميع الأمور التي دعت المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين.

٨) تدرج السياق القرآني في قصة يوسف تبعاً لتدرج الأحداث والزمان، وتنوعت تبعاً لذلك الظروف الاجتماعية والنفسية المحيطة بالقصة، و اختلف المكان، وتنوعت الشخصيات كذلك.

٩) سياق الآيات في مشهد حيلة أخوة يوسف عكس المجتمع المكاني الأول الذي عاش فيه يوسف عليه السلام في بادية الشام، و صورت الانقلاب الذي صار في حياته وانتقاله إلى مجتمع مكاني آخر وهو (الجب)، ثم انتقاله إلى مكان مختلف كلياً عن سابقه وهو (مصر).

١٠) أثر النص الكلامي كان واضحاً في المشتركين، كمحاولة إقناع الأبناء لأبيهم بمرافقة يوسف له، ووحشة يوسف عليه السلام وخوفه من ظلمة البئر، وألم يعقوب عليه السلام وحزنه على فقدته لولده.

وأخيراً، ما هذا إلا جهد مقل لا ادعي فيه الكمال، ولكنني بذلت فيه قصارى جهدي فإن أصبت فذلك مرادي، وإن أخطأت فلي شرف المحاولة والتعلم .

والله الهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع

- ١) إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ٢) أحمد بن فارس القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- ٣) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٥.
- ٤) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت.
- ٥) أبو عبدالله محمد بن عمرو بن الحسن الرازي-فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
- ٦) أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- ٧) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٨) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤١٤هـ.
- ٩) أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي-محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.
- ١٠) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٩٠م.

- ١١) سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ضلال القرآن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج٤، ص١٩٧٥.
- ١٢) شهاب الدين السيد محمد الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٣) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت.
- ١٤) عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تقديم: عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل-محمد الصالح العثيمين، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٥) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٩هـ.
- ١٦) محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٨٤م.
- ١٧) محمد عبدالرحمن جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣.
- ١٨) محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتبة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ط٨.
- ١٩) محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت.
- ٢٠) المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، دار الكتب الوطنية، ليبيا، طبعة ٢٠١١م.

فهرس الموضوعات

٣-١	المقدمة
٦-٤	التمهيد
٤	السياق في اللغة
٦-٤	نظرية السياق
٦	سورة يوسف
١٠-٧	الفصل الأول: سياق الحال
٨-٧	المبحث الأول: سياق الحال عند المحدثين
١٠-٩	المبحث الثاني: سياق الحال عند الأقدمين
٢١-١١	الفصل الثاني: سياق الحال في سورة يوسف من آية (٧) إلى (٢١)
٢٢	الخاتمة